المعجزة السادسة عشرة

إشباع خمسة آلاف

«1بَعْدَ هَذَا مَضَى يَسُوعُ إِلَى عَبْرِ بَحْرِ الْجَلِيلِ وَهُوَ بَحْرُ طَبَرِيَّةَ. 2وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ لأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا آيَاتِهِ
الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا فِي الْمَرْضَى. 3فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى جَبَلٍ وَجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تلاَمِيذِهِ. 4وَكَانَ الْفِصْحُ عِيدُ الْيَهُودِ
قَرِيباً. 5فَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ أَنَّ جَمْعاً كَثِيراً مُقْبِلٌ إِلَيْهِ فَقَالَ لِفِيلُبُّسَ: «مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزاً لِيَأْكُلَ هَؤُلاَءِ؟»
6وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِيَمْتَحِنَهُ لأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ. 7أَجَابَهُ فِيلُبُّسُ: «لاَ يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِئَتَيْ دِينَارٍ لِيَأْخُذَ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئاً يَسِيراً». 8قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ وَهُوَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ: 9«هُنَا غُلاَمٌ مَعَهُ
خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وَسَمَكَتَانِ وَلَكِنْ مَا هَذَا لِمِثْلِ هَؤُلاَءِ؟» 10فَقَالَ يَسُوعُ: «اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ». وَكَانَ فِي
الْمَكَانِ عُشْبٌ كَثِيرٌ فَاتَّكَأَ الرِّجَالُ وَعَدَدُهُمْ نَحْوُ خَمْسَةِ آلاَفٍ. 11وَأَخَذَ يَسُوعُ الأَرْغِفَةَ وَشَكَرَ وَوَزَّعَ عَلَى
التّلاَمِيذِ وَالتّلاَمِيذُ أَعْطَوُا الْمُتَّكِئِينَ. وَكَذَلِكَ مِنَ السَّمَكَتَيْنِ بِقَدْرِ مَا شَاءُوا. 12فَلَمَّا شَبِعُوا قَالَ لِتلاَمِيذِهِ: «اجْمَعُوا
الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ». 13فَجَمَعُوا وَمَلأُوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مِنَ الْكِسَرِ مِنْ خَمْسَةِ أَرْغِفَةِ الشَّعِيرِ
الَّتِي فَضَلَتْ عَنِ الآكِلِينَ.
14فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «إِنَّ هَذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ!» 15وَأَمَّا
يَسُوعُ فَإِذْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكاً انْصَرَفَ أَيْضاً إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ» (يوحنا 6: 1-
15).

(وردت هذه المعجزة أيضاً في متى 14: 13-21 ومرقس 6: 30-44 ولوقا 9: 10-17).

تتميز هذه المعجزة بأنها الوحيدة التي ذكرتها الأناجيل الأربعة بكل تفاصيلها. ومناسبة إجرائها أن المسيح كان قد أرسل تلاميذه للوعظ، فرجعوا إليه يقدمون تقارير عن خدمتهم، وكيف أن الله باركهم وأن الروح القدس استخدمهم.

وجاء في ذلك الوقت بعض تلاميذ يوحنا المعمدان يحكون للمسيح أن هيرودس قطع رأس معلّمهم، فرأى المسيح أن يبتعد عن دائرة مملكة هيرودس، كما رأى أن يعطي تلاميذه الراجعين من خدمتهم فرصة راحة، فاقترح على تلاميذه أن يعبروا إلى شرق بحيرة طبرية، إلى بيت صيدا في قارب، ليتيح لهم فرصة الراحة. وكان الزمن وقت الربيع وعيد الفصح يقترب.

وكانت الجموع تفتش عن المسيح باستمرار لشدة احتياجهم، فالبعض مريض، وآخر حائر، وثالث متعطش لكلمة حية ولتعليم بسلطان يختلف عن تعليم الكتبة. وهؤلاء جميعاً لما علموا أنه يركب صفحة الماء إلى الجانب الآخر ساروا على اليابسة مشاةً ليلحقوا به.

وعندما رسا القارب، أخذ المسيح تلاميذه وصعد على الجبل، فرأى الجماهير تتجمع متجهة إليه يحملون مرضاهم ويسرعون بقدر ما يستطيعون، فقضى اليوم يعلمهم. وفي المساء لم يشأ أن يصرفهم جائعين، فأطعمهم،وهم خمسة آلاف، من خمسة أرغفة وسمكتين!

أولاً المحتاجون والمعجزة

المحتاجون هم الخمسة آلاف، مع نسائهم وأطفالهم. وهم يحتاجون لتعليم ولرعاية.

1- يحتاجون للتعليم:

جاءوا مشاة من المدن جائعين إلى الله، يريدون أن يأكلوا الخبز الحي. وكثيراً ما يظن المؤمنون أن النــاس لا يهتمون بالروحيات، ولكن هذا غير صحيح. فحينما يجد الناس طعاماً روحياً تســتيقظ شــهيتهم ويشــعرون بالجوع، وعندما يجدون مؤمناً يسلك سلوكاً يمجد الرب يسألونه عن سبب الرجاء الذي فيــه، وعــن ســبب السلوك المختلف الذي يحياه. وأصحاب ردود الفعل الحزينة أو اليائسة أو الغاضبة أو المنفلتة لما يرون مؤمناً يتمتع بثمر الروح القدس، الذي هو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمــان، وداعــة، تعفــف (غلاطية 5: 22، 23) يندهلون ويطلبون أن يختبروا هذا الثمر كما اختبره هو. و"طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ" (متى 5: 6).

2- يحتاجون للرعاية:

فقد رآهم المسيح كغنمٍ لا راعي لها. وهكذا حال الناس اليوم، فهم مثقلون بالهموم والحيرة، وهــم كثيــرون، والرعاة قليلون. وكم نحتاج إلى رعاة يرعون رعية الله التي اقتناها المسيح بدمه.

استمع الجمهور لوعظ المسيح، وطال الوقت فجاعوا. وهنا جاء عمل المسيح، الراعي الصالح، راعي الخراف العظيم، ليقدم رعايته الكاملة.

ثانياً: المشاهدون والمعجزة

نتأمل تلاميذ المسيح، وبصفة خاصة فيلبس وأندراوس، ثم الولد صاحب الخمس خبزات والسمكتين:

1- فيلبس:

وجَّه المسيح سؤالاً لفيلبس لامتحانه: "مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزاً لِيَأْكُلَ هَؤُلاَءِ؟" فأجاب: "لاَ يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِئَتَيْ دِينَــارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئاً يَسِيراً" (يوحنا 6: 7) والدينار أجر عامل في اليوم. ولعل المئتي دينار كانت كل ما تبقى من مال في صندوق الجماعة. فكان رأي فيلبس أنهم فقراء لا يملكون ما يكفي.

هذا حساب بشري عادي ومنطق إنساني حكيم وسليم. إنه حساب للنفقة التي تعتمد على نفسها وعلى إمكانياتها بدون أن تُدخل قوة المسيح في الاعتبار. ولكن المسيح كان يريد أن يُرجع فيلبس إلى إيمانه العميق الأول، يوم التقى به في نواحي الأردن حوالي ديسمبر (ك 1) سنة 26م وقال له: «اتبعني» (يوحنــا 1: 43-46). فتبــع فيلبس المسيح، ثم مضى يدعو نثنائيل ليتبع المسيح أيضاً. أراد المسيح أن يرد لفيلبس فرحة خلاصه الأولــى، وقوة تسليمه الأول، فيحصل فيلبس على قوة جديدة لإيمانه.

امتحن المسيح فيلبس ليشجعه ليرى أن المسيح ليس أقل من موسى وهو يشبع بني إسرائيل في صحراء سيناء بالمن كل يوم. وليس المسيح أقل من أليشع الذي أطعم مئة رجل بعشرين رغيفاً وقال: "هَكَــذَا قَــالَ الــرَّبُّ: يَأْكُلُونَ وَيَفْضُلُ عَنْهُمْ» (2ملوك 4: 43).

يضعف إيماننا في مرات كثيرة ويهتز، فنتساءل: من أين؟ ولكن عندما يكلفنا الرب بشيء، لا يكلفنا أبداً مــن عند أنفسنا، لكنه يعطينا ما نعطيه للآخرين، ويباركنا لنباركهم. وعندما نأخذ ونعطي نبارك ونتبــارك نحــن أيضاً.

2- أندراوس:

شهرة أندراوس أنه يقدم الناس دائماً للمسيح، فقد عرَّف أخاه بطرس بالمسيح (يوحنا 1: 35-42). وعندما جاء اليونانيون يطلبون من فيلبس تدبير لقاء لهم بالمسيح، سلَّمهم فيلبس لأندراوس (يوحنا 12: 22). وهكذا تدرب أندراوس على أخذ الناس إلى حيث يجدون البركة. ولقد قدم الأسقف د. ت. نايلز (من سريلانكا) تعريفاً للمبشر فقال: «هو شحاذٌ يخبر شحاذاً آخر أين يجد الخبز».

ومعنى اسم اندراوس «رجل حقاً» فالرجل الحق هو الذي وجد المسيح، وهو الذي يقود غيره لمعرفة المسيح. استطاع اندراوس أن يجيء بالولد إلى المسيح، ويقنعه أن يقدم الخمس خبزات والسمكتين. ولا بد أن قلب أندراوس كان عامراً بالمحبة مليئاً بالشفقة، فاطمأن الولد إليه ومشى معه إلى حيث كان المسيح. وعندما أخذ منه خبزاته وسمكتيه قدمها الولد برضا.

جاء اندراوس بالخمسة أرغفة والسمكتين مع تحفُّظ وقال: «وَلَكِنْ مَا هَذَا لِمِثْلِ هَؤُلاءِ؟» (يوحنا 6: 9) وقوله: «لكن» يفيد إحساسه أن مشكلته أكبر من ثقته في المسيح، فإيماننا قد يضعُف رغم اختباراته الماضية، فيقول: «ولكن». غير أن المسيح منح الإيمان الضعيف دفعة قوة، لما قال: "ائْتُونِي بِهَا إِلَى هُنَا".. وَبَارَكَ وَكَسَّرَ، وَأَعْطَى" (متى 14: 18، 19).

3- الصبي الصغير:

لا بد أنه كان مذهولاً يتأمل المعجزات التي تُجرى، ويسمع كلام النعمة من شفتي المسيح، فنسي طعامه ولم يتناول منه منذ الصباح. وهكذا نحن عندما نرى يسوع بعين الإيمان يملك قلوبنا وينسينا مشاكلنا ومتاعبنا، ولا يعود للجسد سلطانه المدمر علينا، لأن المسيح يرفعنا إلى أعلى ويجعلنا نفكر على مستوى أكبر.

وعندما التقى الولد بالمسيح عمرَّ قلبه بالحب، فشارك المحتاجين من حوله بالقليل الذي معه.

4- التلاميذ:

أرسل المسيح التلاميذ للكرازة بعد أن أعطاهم قوة لذلك، ورجعوا إليه ليقدموا تقريرهم قائلين: "حَتَّى الشَّيَاطِينُ تَخْضَعُ لَنَا بِاسْمِكَ". ولكن لما جاءت الجماهير قالوا له: «اصْرِفِ الْجَمْعَ» (لوقا 9: 12). لقد حصلوا على قوة روحية، لكنهم كانوا لا يزالون محتاجين إلى محبة أكبر ورغبة أقوى في مساعدة الناس.

لقد رأى التلاميذ المسيح المحب والقوي، وعادةً يكون التأثر بالقوة أولاً، ثم يأتي التأثر بالمحبة. وكان التلاميذ محتاجين أن يتعلموا المزيد من المحبة وممارستها، فأمرهم المسيح أن يعطوا الجماهير لتأكل، بأن يأخذوا منه ويعطوا مما أخذوه للآخرين. فهم لم يصنعوا الخبز، ولم يُقنعوا الناس بأخذه، بل أعطوا مما أعطاهم المسيح. ونحن اليوم لا نقدر أن نقنع الناس ليتوبوا، لكننا نقدر أن نطيع المسيح فنقدم للناس خبز الحياة، وروح الله القدوس هو الذي يقنعهم أن يتناولوه.

ثالثاً: المسيح والمعجزة

1- المسيح المريح:

هو الذي قال: "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (متى 11: 28). فالمسيح يدرك احتياج أجسادنا للراحة، لأن الجسد هيكل للروح القدس وروح الله يسكن فيه. والروح نشيط أما الجسد فضعيف، ولذلك يفكر المسيح لا في أرواحنا فقط بل في أجسادنا أيضاً، ولهذا قال لتلاميذه: "تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ وَاسْتَرِيحُوا قَلِيلاً" (مرقس 6: 31).

2- المسيح يحس بالحاجة:

عندما رفع عينيه ونظر الجمع من حوله سأل فيلبس: "مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزاً لِيَأْكُلَ هَؤُلاَءِ؟" (يوحنا 6: 5) إنه يحس بالحاجة من قبل أن يشعر بها المحتاج "لأَنَّ أَبَاكُمْ يَعْلَمُ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُوهُ" (متى 6: 8).

3- المسيح يمتحن الإيمان:

ولذلك سأل فيلبس: "مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزاً لِيَأْكُلَ هَؤُلاَءِ؟". "وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِيَمْتَحِنَهُ لأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ" (يوحنا 6: 6). ويسمح الرب بالامتحان لأولاده ليُنجحهم. إنه لا يريد أن يوقعهم فريسة اليأس، ولكن ليمنحهم مزيداً من التعلُّم، ليكتشفوا نواحي ضعفهم، فيثقون فيه أكثر. يمكن أن يكون رد المسيح على فيلبس توبيخاً، لأن فيلبس رأى كثيراً من معجزات المسيح، وكان يجب أن يعرف أن المسيح يقدر أن يشبع الجماهير. ولكن المسيح أوضح له ضعفه واحتياجه الدائم ليتكل عليه أكثر، ففيلبس لا يمكن أن يستقل عن المسيح، وبدونه لا يقدر أن يفعل شيئاً، لكن معه يستطيع كل شيء.

4- المسيح ينظم الصفوف:

قال "اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ.. اجْمَعُوا الْكِسَرَ" (يوحنا 6: 10، 11) فهو يريدنا منظمين «وَلْيَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ بِلِيَاقَةٍ وَبِحَسَبِ تَرْتِيبٍ» (1كورنثوس 14: 40). ثم أنه لا يريدنا أن نفكر في مصلحتنا كأفراد فقط، بل كجماعة أيضاً. ولا يريد أن نُزعج بعضنا بعضاً بنقص نظامنا، حتى لا يأخذ شخص أكثر من احتياجه، بينما لا يجد جاره ما يحتاجه. فمشكلتنا هي في التوزيع لا في الإنتاج. ثم طلب المسيح أن يجمعوا الكسر الفاضلة، ليجدوا طعاماً بعد ذلك، وليحافظوا على نظافة العشب الأخضر وسلامة البيئة. وجميل أن نترك مكاننا نظيفاً لمن يجيئون بعدنا، لنجده نحن نظيفاً بعد أن يتركوه لنا.

5- المسيح يخلق:

"كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ" (يوحنا 1: 3، 4). لقد عمل المسيح في لحظة ما تعمله الطبيعة في عدة شهور، من زرع ونمو وحصاد وطحن وخبيز. وهو نفس ما فعله في معجزته الأولى عندما حوّل الماء خمراً (يوحنا 2: 1-11) فقد كثَّف عمل الطبيعة وعطاءها. إنه يأمر فيصير، لأنه رب الطبيعة وصاحب السلطان، والخالق العظيم والغير المحدود بزمن.

6- المسيح يشبع النفس والقلب:

ظن اليهود أنه المخلص السياسي، فحاولوا أن يملّكوه عليهم ليخلصهم من نير الرومان ويشبعهم بالخبز. ولم يكن هذا فكر المسيح، فانسحب من بينهم لأنه لا يريد أن يكون ملكاً أرضياً (يوحنا 6: 15). فأصحاب المُلك الأرضي يُسعدون جماعة قليلة من الناس، لفترة قصيرة من الزمن، لكن في المملكة الروحية تمتد البركة لتشمل الجميع وتصل إلى ما لا نهاية في الزمن. وعندما ينتهي الدهر الحاضر تكون هناك مملكة الدهر الآتي. لذلك قال المسيح عندما حاول اليهود أن يملكوه عليهم: "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ.. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ» (يوحنا 6: 47، 48، 51).

صلاة

أبانا السماوي، يا من تفتكر فينا حتى عندما ننسى أن نفكر في أنفسنا، اخلق فينا الجوع والعطش إليك، فنجد عندك الخبز الحي الذي يمنحنا الشبع والقوة، فيتحقق لنا قول المسيح: "طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ، لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ". باسم المسيح.

أسئلة

1- لماذا طلب المسيح من تلاميذه عبور بحيرة طبرية إلى بيت صيدا؟
2- «الناس غير جائعين للخبز الحي» قول صحيح أم خاطئ؟ برهن على صحة إجابتك.
3- «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟» لماذا وجَّه المسيح هذا السؤال لتلميذه فيلبس؟
4- ما معنى اسم «أندراوس» ولماذا كان اسماً على مُسمَّى؟
5- لماذا نسي الولد أن يأكل خبزاته وسمكتيه منذ الصباح؟
6- في هذه المعجزة نرى المسيح «الخالق» اشرح كيف؟
7- لماذا انسحب المسيح بعد إطعام الخمسة آلاف؟

المعجزة السابعة عشرة

المشي على الماء

22وَلِلْوَقْتِ أَلْزَمَ يَسُوعُ تَلاَمِيذَهُ أَنْ يَدْخُلُوا السَّفِينَةَ وَيَسْبِقُوهُ إِلَى الْعَبْرِ حَتَّى يَصْرِفَ الْجُمُوعَ. 23وَبَعْدَمَا صَرَفَ
الْجُمُوعَ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ مُنْفَرِداً لِيُصَلِّيَ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ كَانَ هُنَاكَ وَحْدَهُ. 24وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ قَدْ صَارَتْ
فِي وَسَطِ الْبَحْرِ مُعَذَّبَةً مِنَ الأَمْوَاجِ، لأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مُضَادَّةً. 25وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ
يَسُوعُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ. 26فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلاَمِيذُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: «إِنَّهُ خَيَالٌ». وَمِنَ
الْخَوْفِ صَرَخُوا! 27فَلِلْوَقْتِ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا». 28فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ
كُنْتَ أَنْتَ هُوَ فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ». 29فَقَالَ: «تَعَالَ». فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ
لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ. 30وَلَكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ. وَإِذِ ابْتَدَأَ يَغْرَقُ صَرَخَ: «يَا رَبُّ نَجِّنِي». 31فَفِي الْحَالِ
مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ وَقَالَ لَهُ: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ لِمَاذَا شَكَكْتَ؟» 32وَلَمَّا دَخَلاَ السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ.
33وَالَّذِينَ فِي السَّفِينَةِ جَاءُوا وَسَجَدُوا لَهُ قَائِلِينَ: «بِالْحَقِيقَةِ أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ!» (متى 14: 22-33).

(وردت هذه المعجزة أيضاً في مرقس 6: 45-51 ويوحنا 6: 15-21).

أشبع المسيح خمسة آلاف بخمسة أرغفة وسمكتين، فأرادوا أن ينصبوه ملكاً سياسياً عليهم، فصرف الناس، وطلب من التلاميذ أن يركبوا سفينتهم ويعبروا بحيرة طبرية إلى الجانب الغربي منها لبيت صيدا الجليل، بقرب كفرناحوم. وصعد هو إلى الجبل وحده ليصلي. لم تكن صلاة المسيح صلاة اعتراف، لأنه لم يخطئ. ولم تكن صلاة طلب قوة من الله، لأنه هو صاحب السلطان الذي دُفع إليه كل سلطان في السماء وعلى الأرض. لكنها كانت شفاعية من أجل التلاميذ ليفهموا معنى رسالته الروحية ومُلكه على القلوب.

كان عرض بحيرة طبرية في تلك المنطقة نحو 45 غلوة (والغلوة ربع كيلو متر) وعندما بلغ التلاميذ الغلوة الخامسة والعشرين تقريباً هبَّت عليهم ريح معاكسة من الغرب. وبحيرة طبرية معروفة بعواصفها العنيفة المفاجئة. وكانت العاصفة أقوى من أن يواجهها التلاميذ وحدهم، رغم تمرُّسهم بالبحيرة.

وفي الهزيع الرابع من الليل جاء المسيح لينقذ تلاميذه. لقد رآهم من بعيد، وعرف احتياجهم فأسرع لنجدتهم. أليس هذا ما يفعله معنا؟ في كل ضيقنا يتضايق، وملاك حضرته يخلصنا (إشعياء 63: 9).

كان الرومان يقسمون الليل إلى أربعة أقسام: مساءً، ونصف الليل، وصياح الديك، وصباحاً. وكان «صباحاً» قبل الشروق بثلاث ساعات. في ساعات ما قبل الشروق جاء المسيح ماشياً على الماء لينقذ تلاميذه من الغرق، فأشرقت عليهم شمس بره، بنور خلاصه.

يسمع الله صلاتنا من على بُعد، ويدرك أعوازنا فيتحرك ليساعدنا، فالله فعال في الزمن والتاريخ، وهو حي في سمائه وعلى أرضنا، يعمل مشيئته في سمائه لأن ملائكته يخدمونه ويسبحونه نهاراً وليلاً، لكل واحد منهم ستة أجنحة يتَّجه بهما إلى حيثما يوجّهه الله (إشعياء 6: 2). والله يجيئنا بنفسه أو بملائكته، أو بواسطة شعبه وخدامه الذين يمدون لنا يد العون.

ولكن التلاميذ عندما رأوا المسيح قادماً نحوهم ظنوه خيالاً وخافوا أكثر. كانوا خائفين من الأمواج، ومما ظنوه خيالاً، مع أنه جاء ليساعدهم! ولكن المسيح بدد الخوفين معاً عندما قال لهم: "تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا"

(آية 27) وهنا قال بطرس: "يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ" (آية 28). فأمره المسيح بذلك، فنزل من السفينة ومشى على صفحة الماء. ولكن ما أن حول نظره من المسيح إلى الماء الهائج من حوله حتى بدأ يغرق. وفعل بطرس ما يجب أن يفعله كل مؤمن: صرخ "يَا رَبُّ نَجِّنِي» (آية 30) ففي الحال مدَّ يسوع يده وأمسك به وقال له بعد أن نجاه: «يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟». ولما دخلا السفينة سكنت الرياح (آيتا 31، 32).

هذه المعجزة ثلاثية البركات: هدأ المسيح البحر للتلاميذ جميعاً؛ وجعل بطرس يمشي على الماء؛ وأنقذه من الغرق. وهذا ما يحدث معنا، فالمسيح يُجري معنا لا معجزة واحدة بل معجزات، حتى أننا كثيراً ما ننسى المعجزات الصغيرة في انبهارنا بالمعجزة الكبيرة! فلنقُلْ كداود: «بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ وَلا تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ» (مزمور 103: 1).

أجرى المسيح معجزات على اليابسة، وعلى الماء، فهو رب الأرض والبحر، القادر أن يفعل هنا وهناك، ولا يوجد مكان لا تمتد إليه يد قدرته. لقد أطعم الجائعين، وسكن الماء الهائج، فنقول له: "اَلرَّبُّ رَاعِيَّ فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ. 2فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي. إِلَى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُورِدُنِي" (مزمور 23: 1، 2). ففي هاتين المعجزتين نرى كيف أطعمهم، ثم كيف أوردهم إلى مياه الراحة.

أولاً: المحتاجون والمعجزة

1- التلاميذ:

(أ) جاءت معجزة تهدئة الرياح بعد اختبار روحي عميق، فقد اختبر التلاميذ أن مخلّصهم قادر أن يطعم خمسة آلاف بخمسة أرغفة وسمكتين. هذه هي المائدة السماوية التي أشبع بها تلاميذه والمحتاجين، وتبقَّت اثنتا عشرة قفة من الكِسَر.

أحياناً يطمئن الإنسان إلى قدراته الروحية، ويظن بعد اختبارات روحية عظيمة أنه تعلَّم الكثير! ولكن أعظم اختباراتنا لا تعني أننا سننجو من متاعب الحياة، فإبليس يهاجمنا أكثر كلما حققنا نمواً وارتفاعاً روحياً، فإذا اختبرنا الكثير فلننظر لئلا نسقط، ولنجعل اعتمادنا عليه مستمراً، فلا توجد بداخلنا قوة تكفي احتياجاتنا، ولكن قوتنا تكون بقدر حصولنا على القوة منه.

(ب) عندما بدأ التلاميذ الرحلة كانت الرياح مواتية، والماء هادئاً، وفي منتصف البحيرة أتت الرياح بما لا تشتهي السفن "وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ قَدْ صَارَتْ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ مُعَذَّبَةً مِنَ الأَمْوَاجِ، لأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ مُضَادَّةً" (آية 24). عاجزة عن الرجوع من حيث أتت، وعاجزة عن متابعة السفر إلى الميناء المراد الوصول إليه! وهذا يحدث معنا في كل وقت، فالله يسمح لنا بالتجارب ليعرِّفنا شخصه، ويعلّمنا الاتكال عليه.

(ج) استمر تعب التلاميذ فترة طويلة، إلى الهزيع الرابع من الليل. "وَفِي الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ مَضَى إِلَيْهِمْ يَسُوعُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ" (آية 25).

والسؤال: لماذا ترك المسيح التلاميذ على صفحة الماء، والريح تعصف بسفينتهم؟

نحن لا ندرك الحكمة الإلهية دائماً. وفي مرات كثيرة نسأل الله: لماذا سمحت بأن نجتاز مثل هذه الظروف؟ لكننا نحتاج دائماً أن نسلم له، لأننا وإن كنا لا ندرك حكمته، لكننا ندرك أنه يحبنا.

(د) لم يعرف التلاميذ معلّمهم عندما جاءهم وظنوه خيالاً، لأن الخلاص جاءهم من حيث لم يتوقعوا، وبعد أن فقدوا كل أمل في النجاة، فارتعبوا. "فَلَمَّا أَبْصَرَهُ التَّلاَمِيذُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ اضْطَرَبُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ خَيَالٌ. وَمِنَ

الْخَوْفِ صَرَخُوا!" (آية 26). يجيئنا الله بالنجاة من أبواب لا نعرفها ولا نتوقعها ولم نسمع عنها، وأحياناً لعظمة الخلاص القادم نظن أنه نوع من الخيال!

ومع أن المؤمنين يتعلمون طرق الله كلما تقدموا في الإيمان، إلا أن مفاجئات الله المعجزية وتعاليمه الاختبارية جديدة في كل صباح. فليعطنا الله روح التعلم والانبهار باستمرار.

(هـ) صرخ التلاميذ، وجيدٌ أن يصرخ المؤمن ليعلن ضعفه وعجزه ونقص حكمته وعدم قدرته على إنقاذ نفسه. وعندها تجيئه النجاة الإلهية: "تَشَجَّعُوا! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا".

2- بطرس

(أ) ثقته الشديدة: "فَأَجَابَهُ بُطْرُسُ: يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ عَلَى الْمَاءِ" (آية 28). اشترك بطرس مع سائر التلاميذ في الخوف، ولكنه في ذلك اليوم جاز في اختبار جديد. كانت عنده الثقة الشديدة، فقال: "إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ". لا بمعنى الشك بل بمعنى التأكيد، وكأنه يقول: «أنا أعلم أنك أنت هو المسيح، فمُرني أن آتي إليك». وطلب بطرس أن يوجِّه المسيح له أمره «فَمُرْنِي» مما يدل على أن بطرس رجل الطاعة.

تميز بطرس عن سائر التلاميذ بأنه كان أكثرهم سرعة، حتى نسمّيه أحياناً «المندفع». كان سريعاً في معرفة المسيح، وفي إعلانه من هو المسيح. وفي هذا الموقف ألقى نفسه في البحيرة ليصل إلى الشاطئ قبل باقي التلاميذ ليلتقي بالمسيح.

(ب) ولكن الثقة الشديدة تحولت إلى ثقة مرتعشة. "فَنَزَلَ بُطْرُسُ مِنَ السَّفِينَةِ وَمَشَى عَلَى الْمَاءِ لِيَأْتِيَ إِلَى يَسُوعَ. وَلَكِنْ لَمَّا رَأَى الرِّيحَ شَدِيدَةً خَافَ.. وَابْتَدَأَ يَغْرَقُ" (29، 30أ). كم مرة جعل الرب لنا «الماء» الذي لا يمشي عليه أحد طريقاً صلباً راسخاً ثابتاً! ولكن بطرس حوَّل نظره من رب الظروف إلى الظروف، ومن القادر على المعونة إلى عجزه، ومن عظمة نصرته إلى شدة العقبات التي تعترضه! وعندما نحوِّل نظرنا من حلال المشكلة إلى المشكلة نفسها نغرق، لأن المشكلة أكبر منا، ولا يوجد عندنا ما يعطينا الانتصار عليها.

عزيزي القارئ، عندما تعترف بخطاياك لله، لا تركز الفكر على خطاياك، بل على غافر الخطية، لأننا كلما لوَّمنا أنفسنا على الخطية فكرنا فيها فتصير أفكارنا سلبية، ونفقد الثقة في أنفسنا. لكن عندما نفكر في غافر الخطية، صاحب كفارة الصليب، المحب الذي يقبلنا، نحوِّل نظرنا من المشكلة إلى المخلِّص.

وبالرغم من أن بطرس كان يُحسن السباحة إلا أنه كاد يغرق. لعل الخوف الذي سيطر عليه شلَّ قواه الطبيعية، والخوف يشل عادة قُوانا ومواهبنا المعطاة لنا من الله. لكننا نحتاج إلى من هو فوق الطبيعة، لأن قدراتنا الطبيعية عاجزة ومحدودة.

(ج) ثقة الطلب المصلية: «يَا رَبُّ، نَجِّنِي» (آية 30). إنها صلاة قصيرة لكنها عميقة، تعترف بالضعف ولكنها مؤمنة بالمنقذ. فلقد رجعت لبطرس الثقة التي قال بها: «مُرْنِي أَنْ آتِي إِلَيْكَ». تقوَّت الثقة المرتعشة الخائفة وصرخت مرة أخرى لأنها تثق في مستجيب الصلاة. وجاءت الإجابة سريعةً، ومدَّ المسيح يده القادرة القوية المخلِّصة وأمسك به.

لنعلم أن طوق النجاة هو الثقة في محبة المسيح مخلّصنا. لا يقول الإنجيل: «التلميذ الذي كان يحب يسوع» لكن: التلميذ الذي كان "يَسُوعُ يُحِبُّهُ" (يحنا 13: 2) لأن محبتنا له تهتز وتضعف، ولا نستطيع أن نعتمد على يدنا المرتعشة التي تمسك به، ولكننا نعتمد على يد المسيح الذي يمسك بيدنا. فهذه هي القوة القادرة، فنقول:

"فِي ضِيقِي دَعَوْتُ الرَّبَّ، وَإِلَى إِلَهِي صَرَخْتُ، فَسَمِعَ مِنْ هَيْكَلِهِ صَوْتِي، وَصُرَاخِي قُدَّامَهُ دَخَلَ أُذُنَيْهِ" (مزمور 18: 6).

ثانياً: المسيح والمعجزة

1- المسيح المصلي:

تبدأ هذه المعجزة بالمسيح على الجبل يصلي، لا طلباً للغفران أو القوة، بل لأنه واحد مع الآب يصلي من أجل التلاميذ، كما قال: "وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلاَءِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضاً مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ" (يوحنا 17: 20) فالمسيح صلى من أجل الاثني عشر، ومن أجل الذين يؤمنون به بكلامهم، فهو دائماً يرفعنا بشفاعته. ولا توجد شفاعة مقبولة إلا شفاعته وحده، لأن البشر جميعاً خطاؤون، محتاجون إلى شفيع. لكن المسيح هو الكامل الوحيد الفريد. وحده المستحق أن يكون شفيعاً لأنه في غير احتياج لمن يشفع فيه. ثم إنه يستطيع (كما طلب أيوب) أن يضع يده على كلينا: على الله وعلينا (أيوب 9: 33)، فطبيعته الإنسانية كإنسان كامل تجعله يضع يده علينا: "فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضاً كَذَلِكَ فِيهِمَا" (عبرانيين 2: 14). فالمسيح لحم ودم مثلنا تماماً فهو كامل الإنسانية، المولود من العذراء القديسة مريم، والذي مات على الصليب والذي دُفن. ولكنه في الوقت نفسه هو الإله الكامل. جاء أرضنا وهو الموجود من قبل ميلاده، فهو «مولود غير مخلوق». وبعد صلبه ودفنه قام من قبره، لأن القبر لا يُمسك الحياة، وهو رب الحياة، وسيد الحياة. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. هذا الإنسان الكامل يضع يده عليَّ. وهذا الإله الكامل يضع يدي في يد الله ليُجري المصالحة، وتتحقق كلمات الإنجيل: "إِنَّ اللهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحاً الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ، غَيْرَ حَاسِبٍ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ" (2كورنثوس 5: 19).

2- المسيح الحنان:

رأى المسيح على الجبل في ظلمة الليل تلاميذه معذبين على البحيرة (مرقس 6: 48). عينا المحبة اخترقتا أستار الظلام، فهو العارف بالغيب. ولم يستغرق وقتاً لينتقل من على الجبل إلى وسط البحيرة ماشياً على الماء. "فَقَالَ الرَّبُّ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ، وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ" (خروج 3: 7، 8).

3- المسيح القادر:

إنه الرب الماشي على البحر "الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَحْدَهُ، وَالْمَاشِي عَلَى أَعَالِي الْبَحْرِ" (أيوب 9: 8).

4- المسيح المتأني:

جاء في الهزيع الرابع من الليل. يتذمر مؤمنون كثيرون على الله لأنهم يعتقدون أنه يتركهم وسط التعب. لكن أناة الله تصوغ حياتهم، وتعلمهم من خلال تجاربهم. فهو لا يأتي في توقيتنا نحن بل في توقيته الحكيم. إنها حكمة المعلّم.. حكمة الأب. إنه مثل منقذٍ لمن يتعرض للغرق. يترك المسكين لثوانٍ محسوبة، إلى أن يصير مستعداً للتسليم، فيحمله لشاطئ النجاة.

مرة أسكت المسيح العاصفة وهو موجود مع التلاميذ في القارب، وفي هذه المرة كان غائباً عنهم. كان يريد أن يعلمهم أنه حتى وإن كان غائباً عنهم بالجسد لكنه موجود معهم بروحه. في الإنقاذ الأول رأوه بأعينهم يُسكت العاصفة، ولكن في الإنقاذ الثاني رأوه يجيء من بعيد. و"طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا» (يوحنا 20: 29).

عزيزي القارئ، ليس المهم أن تراه، بل أنه هو يراك. ليس المهم أن تمسك به، بل أنه هو يمسك بك. عندئـذٍ تراه وتمسك به، وقد امتلأ قلبك بالطمأنينة والفرح.

5- المسيح الذي ينتظر الدعوة:

حاول المسيح أن يتجاوز القارب "أَتَاهُمْ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ وَأَرَادَ أَنْ يَتَجَاوَزَهُمْ" (مرقس 6: 48) لأنه يريد أن يسمع من التلاميذ طلب النجاة. وهكذا فعل مع تلميذي عمواس ليوجها الدعوة إليه: "ثُمَّ اقْتَرَبُوا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَا مُنْطَلِقَيْنِ إِلَيْهَا، وَهُوَ تَظَاهَرَ كَأَنَّهُ مُنْطَلِقٌ إِلَى مَكَانٍ أَبْعَدَ" (لوقا 24: 28). وهنا عظمة خلاص المسيح. هنا نرى المسؤولية الإنسانية والعمل الإلهي، فالمسؤولية الإنسانية تدعو المسيح لدخول القلب، والمسؤولية الإلهية هي دخول القلب "هَئَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي" (رؤيا 3: 20).

6- المسيح المُشجِّع:

الرب دائماً يشجع أبناءه قائلاً: «أَنَا هُوَ، لا تَخَافُوا» (مرقس 6: 50) كما أنه يريدهم أن يكونوا دائماً في سلام: "سلاَماً أَتْرُكُ لَكُمْ. سلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ" (يوحنا 14: 27). لأن عطية العالم محدودة يختلط معها السلام بالقلق، لكن سلام الرب صافٍ وواضح. هو الذي أمسك بيد بطرس: "مَدَّ يَسُوعُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ" (آية 31). ولم يوبخ ضعف إيمان تلميذه إلا بعد أن رفعه فوق البحر الهائج. لم يقل له: لماذا جئت إليَّ؟ فمن حق بطرس أن يجيء للرب. ولكنه قال له: "يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ، لِمَاذَا شَكَكْتَ؟" (آية 31). فمن حق المؤمن أن يطلب من الله، لكن ليس من حقه أن يشك في محبة الله.

"أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي" (مرقس 9: 24).

صلاة

أبانا السماوي، عندما يضطرب بنا بحر الحياة، وعندما نفقد السيطرة على المصير يجيئنا المسيح، سيد الطبيعة، يمشي على الموج ليهدئه، فالموج تحت قدميه خاضع. فإليك نلجأ، وعليك نعتمد، لنجد الأمان العميق داخلنا، فلا نعود نضطرب مهما ثار بحر الحياة. باسم المسيح. آمين.

أسئلة

1- ماذا كانت صلاة المسيح على الجبل وحده؟

2- ما معنى «الهزيع الأخير»؟

3- لماذا ظن التلاميذ أن المسيح الآتي إليهم ماشياً على الماء خيالاً؟

4- نتعلم من طلب بطرس: «مُرني أن آتي إليك على الماء» أمرين. اذكرهما.

5- ماذا نتعلم من مَشي المسيح على الماء؟

6- ماذا نتعلم من القول: «أراد أن يتجاوزهم»؟

7- اذكر اختباراً روحياً جُزْتَ فيه يشبه مشي بطرس على الماء.

المعجزة الثامنة عشرة

شفاء ابنة الفينيقية

«21ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَانْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ. 22وَإِذَا امْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ خَارِجَةٌ مِنْ تِلْكَ التُّخُومِ صَرَخَتْ إِلَيْهِ: «ارْحَمْنِي يَا سَيِّدُ يَا ابْنَ دَاوُدَ. ابْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدّاً». 23فَلَمْ يُجِبْهَا بِكَلِمَةٍ. فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: «اصْرِفْهَا لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!» 24فَأَجَابَ: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ». 25فَأَتَتْ وَسَجَدَتْ لَهُ قَائِلَةً: «يَا سَيِّدُ أَعِنِّي!» 26فَأَجَابَ: «لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ». 27فَقَالَتْ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. وَالْكِلاَبُ أَيْضاً تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا». 28حِينَئِذٍ قَالَ يَسُوعُ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ». فَشُفِيَتِ ابْنَتُهَا مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ» (متى 15: 21-28).

(وردت هذه المعجزة أيضاً في مرقس 7: 24-30).

رحَّب المسيح بالناس جميعاً، أفراداً وجماعات. مرة التقى في حديث فردي مع رجل دين يهودي، هو نيقوديموس، وكلَّمه عن الولادة الجديدة (يوحنا 3). ومرة أخرى التقى في حديث فردي مع امرأة سامرية ساقطة، وقدم لها الماء الحي (يوحنا 4).

وشفى المسيح يهوداً ووثنيين. شفى غلام قائد المئة (متى 8) كما شفى ابن خادم الملك (يوحنا 4).

والمعجزة التي نتأملها الآن هي معجزة شفاء ابنة سيدة أممية وثنية، كانت مريضة مجنونة، تسكنها الأرواح الشريرة، فجاءت أمها إلى المسيح تطلب منه أن يشفيها - فقد كان بؤس الابنة هو بؤس الأم.

ويصف متى المرأة بأنها «كنعانية» لأنها - وكل سكان فينيقية - من نسل كنعان حفيد نوح. ويصفها مرقس بأنها «أممية» بسبب دينها الوثني، فإنها من غير اليهود، كما يصفها بأنها «فينيقية سورية» لأن الرومان اعتبروا بلدها جزءاً من ولاية سوريا.

كانت المرأة الفينيقية قد سمعت عن المسيح (متى 4: 24) فالرائحة العطرة لا تختفي - فجاءت إليه، ولكن المسيح صدمها. وتثير هذه المعجزة أسئلة كثيرة، لأن الحديث الذي دار بين المسيح وبين هذه الأم يختلف عن الحديث الذي دار بينه وبين غيرها من طالبي الشفاء وسائلي البركة. وسندرك من تأملنا في هذه المعجزة أن قصد المسيح دائماً هو إظهار محبته للبشر في كلامه وعمله، حتى لو ظهر من كلامه أنه لا يحبنا بالقدر الكافي الواضح.

يبدو في هذه المعجزة أن المسيح كان متردداً في شفاء ابنة الكنعانية، لأنه أولاً لم يجاوبها. وعندما قال له تلاميذه: "اصْرِفْهَا لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!" (آية 23) وهم يقصدون بذلك أن يشفي ابنتها حتى تتركهم، أجاب: "لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ" (آية 24).

وعندما دخل البيت، دخلت المرأة وراءه وسجدت وطلبت أن يشفي ابنتها، فردَّ عليها الردَّ الذي قد يصدمنا، كما لا بد أنه صدمها، إذ قال: "لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ" (آية 6). فهذا موقف غريب لم نتعوَّده من المسيح. لقد رأيناه يلتقي من قبل بأناس مختلفين شفاهم، فتبادر إلى ذهننا سؤال: لماذا جاوب المسيح تلاميذه والفينيقية بهذا الأسلوب؟ لا بد أن هناك سبباً جعله يتصرف هكذا.

لقد سمعت هذه المرأة أن المسيح يشفي كل مرض، فقررت الذهاب إليه لتطلب شفاءً لابنتها. وعندما جاوبها بما لم تتوقعه، ولم يسبق له أن ردَّ به على أحد قبلها، لم تيأس، بل صممت أن لا ترجع إلا بعد أن تنال منه شفاء ابنتها، فدخلت البيت وراءه وسجدت وكررت طلبها، فنالت بسبب لجاجتها سؤل قلبها، كما نالت مدح المسيح لإيمانها.

أولاً: المحتاجة والمعجزة

1-الابنة الفينيقية:

هي مجنونة ومسكونة بالروح الشرير (مرقس 7: 25) فالشيطان يضيّع عقل من يسلّم نفسه له. كان هناك تاجران يمتلك كل منهما محلاً خاصاً به، أحدهما ناجح والآخر يعوزه النجاح، فحسد الفاشل جاره الناجح، وكاد له بأن أرسل من غيَّر أسعار البضائع، فوضع سعراً عالياً على البضائع الرخيصة، وسعراً رخيصاً على البضائع الثمينة. وخسر التاجر الناجح خسارة كبيرة قبل أن يكتشف المكيدة! وإبليس يفعل نفس الشيء معنا، فهو يضع سعراً كبيراً على شيء تافه، ويضع سعراً تافهاً على شيء ثمين، فنجري وراء البائد وننسى الباقي للحياة الأبدية! منا من يقيِّم نفسه بما عنده من ثروة ستنتهي يوماً، ولكن العاقل يقول: "عُرْيَاناً خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي وَعُرْيَاناً أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ" (أيوب 1: 21) و"فُقَرَاءُ وَلَكِنَّنَا نُغْنِي كَثِيرِينَ" (2كورنثوس 6: 10).

سكن إبليس هذه الفتاة المسكينة فذهب بعقلها. ولا زال إبليس، وسيظل يضلل الناس، ويضيِّع الفكر السليم والمنطق العاقل ويقلب الأوضاع، فيجعلهم يجرون وراء التافه ويهملون ما هو أهم، مع أن ملكوت السماوات يشبه تاجراً يطلب لآلئ حسنة، وعندما وجد اللؤلؤة العظيمة، باع كل ما كان يملك ليشتريها (متى 13: 45، 46) .

2- الأم التي طلبت:

(أ) الأم التي آمنت إيماناً قوي التصميم (آية 28). لا بد أن الروح القدس تعامل معها حتى أقنع قلبها أن احتياجها كله موجود عند المسيح. كان هذا الإيمان العظيم مصمماً على أن يأخذ ولا يرجع فارغاً. علمت أنه غني بالقوة والقدرة والمحبة، وسخي في العطاء والتوزيع. وعندما رأت وجهه أدركت أن كل ما سمعته عنه صحيح، فلا بد أن يعطيها ما احتاجت إليه. ومدح المسيح فيها هذا الإيمان بقوله: "يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ" (متى 15: 28). ولم يسبق للمسيح أن مدح إيماناً إلا إيمان الفينيقية وإيمان قائد المئة (متى 8: 10) ولا تذكر لنا الأناجيل أنه مدح إيماناً غير إيمان هذين، وكلاهما من الأمم.

كان إيمانها بالرغم من الخلفية الوثنية التي جاءت منها، فعائلتها كانت تعبد الأصنام، وأما هي فكانت تنتظر المخلص الآتي، فنادته: "ارْحَمْنِي يَا سَيِّدُ يَا ابْنَ دَاوُدَ" لأنها أدركت أن الخلاص به وفيه، وأنه المسيا المنتظر.

آمنت بالرغم من الموقف الصعب الذي وضعها المسيح فيه. فعندما نادته لم يجاوبها، وعندما تدخَّل التلاميذ ليعطيها طلبها رفض، ثم جاء الرد الذي لم تتوقعه: "لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ" (متى 15: 26) ولكنها بالرغم من ذلك أصرت مؤمنة أن يشفي ابنتها.

قال القديس يوحنا فم الذهب: «لم يكن عند **الكلمة** (المسيح) كلمة تشجيع لها، فإن ينبوع الحنان أُغلق، والطبيب ضنَّ بالعلاج». ولكنها قررت الجهاد حتى تغلب، فجاهدت مع المسيح حتى انتصرت بنعمته هو! إذ غلبت نفسها وكبرياءها. إن فم الإيمان لا يُغلَق حتى لو بدا أن المسيح أغلق عن صاحب ذلك الإيمان فمه وأذنه، وحتى لو سلك التلاميذ سلوكاً خاطئاً "اصْرِفْهَا لأَنَّهَا تَصِيحُ وَرَاءَنَا!" (آية 23)، وحتى لو اعتقد صاحبه أن البركة هي لقليلين، وأنه غير مستحق. لم تتوقف الفينيقية عن طلبها بالرغم من كل ذلك.

تعلَّمت الفينيقية الإيمان المصمِّم من الروح القدس، وهو الإيمان الذي يقرع الباب ولا يسكت حتى يستيقظ صاحب البيت، ولو بعد منتصف الليل، ليعطي الاحتياج المطلوب (لوقا 11: 8)؛ وهو الذي يجاهد مع الملاك كيعقوب ويصلي لينال البركة (تكوين 32: 24-32)؛ وهو جهاد الخاضع المسترحم (هوشع 12: 3، 4).

كان جهاد الفينيقية جهاد الطاعة، حسب قول بولس: "أُجَاهِدُ حَسَبَ عَمَلِهِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيَّ بِقُوَّةٍ» (كولوسي 1: 29). هناك إذاً قوة الرب في القلب المسكين ليجاهد مع المسيح وليقول له: "نَعَمْ يَا سَيِّدُ. وَالْكِلاَبُ أَيْضاً تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا" (آية 27).

(ب) الأم التي تواضعت: نرى تواضع هذه المرأة المصممة، فلم تأتِ إليه في عراك، لكن في صلاة وخضوع. وافقت مع المسيح على ما قاله لها، وقالت: "نَعَمْ يَا سَيِّدُ" (آية 27) بالرغم من أن كلامه كان موجعاً لها. فتشت عن الحق فيما قاله المسيح، فأجابت: "وَالْكِلاَبُ أَيْضاً تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ" وكأنها تقول له: فُتاتك يا سيدي، وأقل القليل من عندك يكفي ليُخرج الشيطان من ابنتي. معجزتك مع ابنتي بسيطة بالنسبة لما أجريته مع اليهود، فيكفيني الفتات منك. (والفتات عند اليهود هو الجزء الذي يُقطع من الرغيف، فتُمسح به الأيدي من الدهون ويُرمى للكلاب المدللة). فكأنها تقول له: إن كان فتاتك يُشبع، فكم يشبع خبزك! لقد صلى أول بطريرك لمدينة البندقية الإيطالية (واسمه لورنس جستنيان) عندما أشرف على الموت هذه الصلاة: «من أنا يا رب لأجلس على مائدتك وأرى مجد الثالوث الأقدس؟ يكفي أن أجلس عند أقدام القديسين، يشبعني الفتات الساقط من مائدتك في ملكوتك» هذا هو الإنسان المتواضع.

(ج) الأم التي نالت: لقد اغتصبت الملكوت "وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ» (متى 11: 12) فأخذت الملكوت بجهاد التواضع وطلب الإيمان الذي لا يمل. قال مارتن لوثر: «كأن المرأة الفينيقية أخذت السيف من يد المسيح وحاربته بكلمات قائلة: "نَعَمْ يَا سَيِّدُ. وَالْكِلاَبُ أَيْضاً تَأْكُلُ مِنَ الْفُتَاتِ الَّذِي يَسْقُطُ مِنْ مَائِدَةِ أَرْبَابِهَا" فنالت إجابة المدح منه: "يَا امْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ! لِيَكُنْ لَكِ كَمَا تُرِيدِينَ" (آية 28). لقد حصلت على النعمة المختفية وراء رفض المسيح لطلبها. قال مارتن لوثر أيضاً: «أعطِ الرب الحق كله في ما يقول. اتفق معه في وجهة نظره، ولا تتوقف عن الصلاة حتى تنتصر كما انتصرت الفينيقية، وتُحوِّل كل البراهين التي ضدك إلى قضايا في صفك، فتنال ما عند المسيح من بركة». لقد انتصرت بالغلبة من المسيح ونعمته وروحه القدوس.

لقد نالت الفينيقية طلبها لأنها دخلت إطار النعمة، إطار المائدة السماوية، حتى ولو كانت تحتها، مع الكلاب آكلة الفُتات، وهي تحمل مشاعر الابن الضال الذي قرر أن يقول لأبيه: «اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ» (لوقا 15: 19). لقد طلبت الفُتات من سخاء الرب، فمضت تتحدث عن رحمته.

ثانياً: المسيح والمعجزة

نتساءل: لماذا رفض المسيح الكلام مع الفينيقية مع أنه كلَّم السامرية؟ ولماذا تقدم بالشفاء لمريض البركة وسأله: «أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟» (يوحنا 5: 6) ومع ذلك رفض إجراء هذه المعجزة؟ لماذا قدَّم لمرضى كثيرين الشفاء الجسدي والروحي، وصدَّ الفينيقية بغير ما توقعت، وبغير ما نتوقع نحن منه؟! لا بد أن هناك سبباً.

1- قساوة المسيح:

قساوته مع الفينيقية هي في اللفظ فقط، كقساوة يوسف مع إخوته القادمين من أرض كنعان، فقد تعامل معهم بقساوة بالرغم من حبه الشديد لهم «فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ بِجَفَاءٍ» (تكوين 42: 7) «وَقَالَ لَهُمْ: جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ» (آية 9) غير أنه "تَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى. ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ شَمْعُونَ وَقَيَّدَهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ" (آية 24)

ثم أعطاهم القمح ودفع ثمنه، وردَّ لهم ما دفعوه في أكياسهم! وكان يوسف بذلك يحقق نبوات سابقة، كما كان يختبر توبة إخوته ومحبتهم بعضهم لبعض. وتصرُّف المسيح مع هذه الفينيقية يشبه تصرُّف يوسف مع إخوته.

2- وجه المسيح:

لكي نفهم كلمات شخص نحتاج أن ننظر إلى وجهه وهو يتكلم، ولذلك نحتاج أن نرى قسمات وجه المسيح وهو يقول للفينيقية: "لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ". فلو كان وجه المسيح عابساً أو رافضاً أو متوتراً وهو يحدثها بهذه الكلمات، لاكتفت بذلك ورجعت. ولكن لا بد أن قسمات وجهه كانت تعكس العطف والحنان، الذي جعلها تتشجع، ولم تضيع الصدمة تفكيرها السليم. فما لم تنتظره من كلام، مع ما رأته من علامات على وجهه، أيقظ عقلها وقلبها لتقول له: «يا سيد، أوافق على ما تقول، واعتماداً على ما قلت أطلب. أعطني الفُتات فهو يكفيني». ولا ننسى أنه بعد حديثه عن الكلاب قال لها: «يَا امْرَأَةُ» (آية 28) وهي كلمة رقيقة سبق أن نادى بها أمه (يوحنا 2: 4).

لكي نفهم المسيح نحتاج أن نرى وجهه، ولكي نرى وجهه يجب أن نتواجد في محضره، ثم نسجد أمامه بكل خشوع، ونصلي له، فنخرج من لقائه بكل ثقة وراحة وطمأنينة وفرح، وننتظره بإيمان.

وهناك سببان لرد المسيح على المرأة بهذا الرد الغريب، الذي يبدو قاسياً في الظاهر فقط.

(أ) السبب الأول: في المرأة الفينيقية. هزَّ المسيح إيمانها لأنه يعلم أنه قوي وثابت، فلو كان إيمانها ضعيفاً لما كلَّمها بهذه الطريقة أبداً. "وَلَكِنَّ اللهَ أَمِينٌ الَّذِي لاَ يَدَعُكُمْ تُجَرَّبُونَ فَوْقَ مَا تَسْتَطِيعُونَ" (1كورنثوس 10: 13) لقد أعطاها المسيح تجربة بقدر قوة إيمانها.

لن تكون التجربة فوق طاقتنا، فلنطمئن ولتهدأ نفوسنا لأن عندنا منابع قوة لم نستعملها، وعندنا رصيد نعمة لم نصرفه بعد، وهناك فيض من الإيمان العظيم الذي يعضد به الله كل مؤمن "الَّذِي بِهِ تَبْتَهِجُونَ، مَعَ أَنَّكُمُ الآنَ- إِنْ كَانَ يَجِبُ- تُحْزَنُونَ يَسِيراً بِتَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ، لِكَيْ تَكُونَ تَزْكِيَةُ إِيمَانِكُمْ، وَهِيَ أَثْمَنُ مِنَ الذَّهَبِ الْفَانِي، مَعَ أَنَّهُ يُمْتَحَنُ بِالنَّارِ، تُوجَدُ لِلْمَدْحِ وَالْكَرَامَةِ وَالْمَجْدِ عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (1بطرس 1: 6، 7). لقد علَّم الرب الفينيقية، كما يعلمنا، الصلاة كل حين دون ملل ولا يأس، ثم علَّمها ويعلمنا أن الاستجابة قادمة لا شك فيها.

(ب) السبب الثاني: في تلاميذه، فقد أراد أن يعلمهم درساً. كانوا ينظرون للأمم ككلاب، فأراد أن يغيِّر نظرتهم. وكأنه بهذه المعجزة يقول لهم: أنتم لا تحترمون الأمم، ولكن منهم من سيؤمن إيماناً لا يوجد مثله في كل إسرائيل. وسيتعلم بطرس أن لا يقول عن أحد أو شيء إنه نجس، ويكون حامل البشارة للأمم (أعمال 10). صحيح أن بداية الكرازة تكون بين اليهود، ولكن الهدف هو الوصول إلى الأمم، كما قال بولس: "إِنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ قَدْ صَارَ خَادِمَ الْخِتَانِ (أي: خادم اليهود) مِنْ أَجْلِ صِدْقِ اللهِ حَتَّى يُثَبِّتَ مَوَاعِيدَ الآبَاءِ. وَأَمَّا الأُمَمُ فَمَجَّدُوا اللهَ مِنْ أَجْلِ الرَّحْمَةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ:.. سَبِّحُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ الأُمَمِ، وَامْدَحُوهُ يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ. وَأَيْضاً يَقُولُ إِشَعْيَاءُ: سَيَكُونُ أَصْلُ يَسَّى وَالْقَائِمُ لِيَسُودَ عَلَى الأُمَمِ. عَلَيْهِ سَيَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ" (رومية 15: 8-12) إذاً البركة لليهود وللأمم أيضاً. وعندما حمل سمعان الشيخ الطفل يسوع (لوقا 2: 29-32) قال إنه خلاصٌ لإسرائيل ونورٌ للأمم. وقال المسيح عن نفسه إنه الراعي الصالح الذي له "خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضاً فَتَسْمَعُ صَوْتِي، وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ" (يوحنا 10: 16). لقد بدأ المسيح بخراف بيت إسرائيل الضالة ليكونوا بداية الكنيسة التي تشمل كل الشعوب (متى 13: 31-33).

نتمنى أن يسمع كل واحد منا من الرب: "عَظِيمٌ إِيمَانُكِ". وليعطنا الرب الإيمان المنتظر الواثق الذي ينال.

صلاة

أبانا السماوي، عندما نتطلع إلى وجهك المحب ندرك أنك المحبة المتجسِّدة. علِّمنا أن نستمر في طلبنا واثقين أن الغمَّة لا بد تنزاح، والغيمة لا بد تنقشع، لأن عندك خبز البنين، ونحن لاجئون إليك. باسم المسيح آمين.

أسئلة

1- كيف تفسِّر وصف الأم أنها كنعانية وفينيقية وأممية وسورية؟

2- لماذا طلب التلاميذ من المسيح أن يصرف الأم؟

3- ما هو الفُتات؟

4- كيف يصيب إبليس الناس بالجنون؟

5- كيف أظهرت الفينيقية إيمانها، وكيف أظهرت تواضعها؟

6- قول المسيح: «ويُطرح للكلاب» له سبب في الفينيقية – ما هو؟

7- قول المسيح: «ويُطرح للكلاب» له سبب في التلاميذ – ما هو؟

المعجزة التاسعة عشرة

شفاء أعمى تدريجياً

«22وَجَاءَ إِلَى بَيْتِ صَيْدَا فَقَدَّمُوا إِلَيْهِ أَعْمَى وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسَهُ 23فَأَخَذَ بِيَدِ الأَعْمَى وَأَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجِ الْقَرْيَةِ وَتَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ وَسَأَلَهُ هَلْ أَبْصَرَ شَيْئاً؟ 24فَتَطَلَّعَ وَقَالَ: «أُبْصِرُ النَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ». 25ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ أَيْضاً عَلَى عَيْنَيْهِ وَجَعَلَهُ يَتَطَلَّعُ. فَعَادَ صَحِيحاً وَأَبْصَرَ كُلَّ إِنْسَانٍ جَلِيّاً. 26فَأَرْسَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ قَائِلاً: «لاَ تَدْخُلِ الْقَرْيَةَ وَلاَ تَقُلْ لأَحَدٍ فِي الْقَرْيَةِ» (مرقس 8: 22-26).

عوَّدنا المسيح أن ينال المريض منه شفاءً فورياً وكاملاً. ولكن هذه هي المعجزة الوحيدة التي تمَّ فيها الشفاء على مرحلتين. فعندما وضع المسيح يده على عيني أعمى بيت صيدا تَطَلَّعَ وَقَالَ: «أُبْصِرُ النَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ» (آية 24). فعاد المسيح ووضع يده مرة أخرى على عيني الأعمى وجعله يتطلع مرة ثانية، فعاد صحيحاً، وأبصر كل إنسان جلياً.

رأت بيتُ صيدا الكثير من معجزات المسيح، انفتحت فيها عيون روحية فعرفت المخلّص، وأبصرت عيون جسدية فرأت هذا العالم. وبيت صيدا قرية تقوم مبانيها على جانبي بحيرة طبرية حيث يصب نهر الأردن، وهي قرية أندراوس الذي وجد المسيح، وبطرس الذي قاده أخوه أندراوس إلى المسيح، وفيلبس تلميذ المسيح الذي رآه وعرفه، فدعا نثنائيل ليقول له: «تعال وانظر».

لم يجئ الأعمى إلى المسيح بنفسه، لكن أصدقاءه قادوه، وحددوا للمسيح طريقة الشفاء: بأن يلمسه، فأكرم المسيح إيمانهم ولكن بغير الطريق الذي رسموه له، لأنه أخذ بيد الأعمى وأخرجه خارج القرية وانفرد به، وهناك تفل في عينيه ووضع يديه عليهما مرتين، فإذا به يبصر ويرى كل إنسان جلياً.

أولاً: المحتاج والمعجزة

1- لم يحضر الأعمى للمسيح من تلقاء نفسه، بل آخرون «قدموه إليه» (آية 22):

والناس يجيئون إلى المسيح بطرق متنوعة. بعضهم يجيء من تلقاء نفسه لأنه يحسّ بالجوع والعطش الروحيين، فيبغي الشبع والارتواء. لكن بعضهم لا يدركون احتياجهم فيقدمهم آخرون للمسيح، كما حدث مع هذا الأعمى.

رأينا معجزات وجد فيها المسيح المريض، كما حدث مع مريض بركة بيت حسدا (يوحنا 5). وهناك معجزات حُمل فيها المريض للمسيح، كما جرى مع المفلوج (مرقس 2). وهناك معجزات اقتيد فيها المريض للمسيح، كما نرى هنا.

2- هو الوحيد الذي نال الشفاء تدريجياً:

(أ) بسبب نقص حماسه: فأصدقاؤه هم الذين أحضروه. ونلاحظ أن كلامه مع المسيح كان إجابة بقدر السؤال، فلم ينشئ هو حديثاً مع المسيح. وعندما وضع المسيح يده على عينيه لأول مرة سأله: «هَلْ أَبْصَرَ شَيْئاً؟" لم تزد إجابته عن قوله: «أُبْصِرُ النَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ» (آية 24). فلم يكن له الحماس للحصول على بركة أكبر. لقد كان مختلفاً عن الأعمى الذي صرخ: «يَا ابْنَ دَاوُدَ، ارْحَمْنِي».

وعندما وضع المسيح يديه على عيني هذا الأعمى مرة ثانية «عَادَ صَحِيحاً وَأَبْصَرَ كُلَّ إِنْسَانٍ جَلِيّاً» (آية 25). ولكنه لم يُظهر فرحته بالقدر الكافي، ولا أسرع يتكلم عن المعجزة التي عملها المسيح معه. لم ينبهر بشيء، ولم يتحمس لشيء! كثيراً ما نأخذ نحن أكثر مما نطلب أو نفتكر من يدي المسيح، ولكننا لا نملك قوة الشكر ودفعة الحماس لنتحدث عن كم صنع الرب بنا ورحمنا، وكأن ما أنعم به علينا وأعطانا إياه فرضٌ وواجب عليه!

(ب) بسبب نقص معرفته: أجرى المسيح معجزات كثيرة من قبل في بيت صيدا، ولكن يبدو أن هذا الأعمى لم يكن قد سمع عنها، لكن أصدقاءه سمعوا فأخذوه وقدَّموه للمخلّص الذي لم يسمع هو عنه. ولكن هذا الجهل لم يعطل المسيح المحب عن مد يده مرتين لهذا الأعمى الجاهل، ليهبه البصر الكامل. وكم من خاطئ مسكين هلك بسبب عدم المعرفة (هوشع 4: 6).

(ج) بسبب نقص إيمانه: نَقْص حماسه جعله لا يُقبل على المعرفة. ونَقْص معرفته جعله لا يؤمن، فإن الإيمان بالخبر، والخبر بكلمة الله (رومية 10: 17).

3- شفاؤه التدريجي نقله إلى حالة أفضل:

فعندما رأى الناس كأشجار يمشون كان محتاجاً إلى رؤية أوضح. ولم يتركه المسيح حتى حصل عليها.

يأخذ بعضنا بركة قليلة ويقنع بها. لكن الرب يريد أن يعطينا أكثر. عندما جاء أحد فقهاء الدين اليهود للمسيح يسأله عن أول الوصايا، أخبره المسيح أنها محبة الله والآخرين. فأجاب: «جَيِّداً يَا مُعَلِّمُ. بِالْحَقِّ قُلْتَ، لأَنَّهُ اللَّهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ، وَمَحَبَّتُهُ مِنْ كُلِّ الْقَلْبِ وَمِنْ كُلِّ الْفَهْمِ وَمِنْ كُلِّ النَّفْسِ وَمِنْ كُلِّ الْقُدْرَةِ، وَمَحَبَّةُ الْقَرِيبِ كَالنَّفْسِ، هِيَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمُحْرَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ» (مرقس 12: 32، 33). ومن إجابته نرى أنه تعلم درساً روحياً جديداً، فقد كان اليهود يعتبرون الذبائح والمحرقات أهم من كل شيء. ولكن ما تعلمه لم يكن كافياً لخلاصه، فقال له المسيح: «لَسْتَ بَعِيداً عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ» ولست بعيداً تشبه: «أُبْصِرُ النَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ». هذا يعني أن ذلك الفقيه ليس بعيداً، ولكنه ليس داخل الملكوت. إنه يحتاج لخطوة أخرى تُدخله ملكوت الله وتعطيه البركة الكاملة. وشوق قلب المسيح أن يمنحك البركة الكاملة، فلا تتوقف عندما حصلت عليها.

ثانياً: المشاهدون والمعجزة

1- أحضر الأصدقاء الأعمى إلى المسيح، وهذا يُظهر:

(أ) رحمةً بالأعمى: فقد أشفقوا على من لا يرى ولا يعرف، وتحولت شفقتهم من مشاعر إلى عمل. «طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ» (متى 5: 7).

(ب) يُظهر إيماناً بقوة المسيح: الذي قال: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ» (يوحنا 8: 12) . فجاءوا بالأعمى واثقين في قدرته على شفائه.

(ج) يُظهر الحكمة: فإن رابح النفوس حكيم (أمثال 11: 30). أعظم ما تفعله أن تصل إلى رأس الحكمة التي هي مخافة الله، ثم تقود غيرك إلى مخافة الله. السماء تفرح بخاطئ واحد يتوب (لوقا 15: 7، 10) ومن ردَّ خاطئاً عن ضلال طريقه يخلّص نفساً من الموت ويستر كثرة من الخطايا (يعقوب 5: 20).

وعندما انفتحت عينا الأعمى، وأصبحت رؤيته واضحة، تحققت فرحتهم الكاملة!

2- طلب الأصدقاء شفاء الأعمى بطريقة معينة حددوها للمسيح «أن يلمسه»:

في مرات كثيرة، بسبب كثرة حماسنا ومحبتنا للشخص نأمر الرب أن يفعل معه شيئاً نحدده، كما فعل الأصدقاء بطلبهم أن يلتزم المسيح بطريقة خاصة عند شفائه للأعمى. لكننا نحتاج أن نتعلم صلاة المسيح في

بستان جثسيماني: «لِتَكُنْ لا إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ» (لوقا 22: 42) فلا يجب علينا أن نُملي على الرب طريقة عمله وعنايته. ولكن الرب تغاضى عن إملائهم وتحديدهم، وأكرم إيمانهم وشفى الأعمى بطريقته هو، إذ أخذ الأعمى بعيداً عن أصدقائه إلى خارج القرية، وهناك أجرى معجزة الشفاء. ولمس الأعمى مرتين لا مرة واحدة. باركه مرتين، وأنعم عليه إنعاماً مضاعفاً، فالرب أكثر حباً للنفس العاجزة من حب الإنسان الذي يوصلها له، وعطاء الرب للنفس أكبر من توقعات الإنسان الذي يطلب لأجلها منه.

ثالثاً: المسيح والمعجزة

1- أخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية (مرقس 8: 23):

لقد أراد أن يختلي به ويقضي معه وقتاً أكبر. أحياناً يأخذنا الرب من وسط أصدقائنا واهتماماتنا ويفصلنا عن الذين نعرفهم، لأنه يريدنا أن نصرف وقتاً أكبر معه. وهذا ما فعله مع الأعمى. لقد عزله عن المجموعة، وعن ماضيه وعن وثنيته!

عندما ظهر الرب لشاول الطرسوسي في طريقه إلى دمشق، أوقعه على الأرض، فاقتادوه إلى حيث التقى به حنانيا الذي صلى من أجله وفتح عينيه وقلبه. ثم اختلى شاول ثلاث سنوات بالرب في الصحراء ليعيد تقييم كل ما سبق أن تعلمه، وليدرس التوراة في نور جديد، بعد أن عرف أن نبواتها قد تحققت في يسوع الناصري، وليتعمق في معرفة المسيح الذي سيصبح شاهداً له. والذي يتكلم عن الله يحتاج أولاً أن يتكلم مع الله، ويتمتع ويتلذذ به قبل أن ينطلق ليشهد له.

2- تفل في عينيه ووضع يده عليه (مرقس 8: 23):

أخذ الرب شيئاً عادياً وصنع به شيئاً فوق عادي! ألبس المسيح الشيء الطبيعي رداء ما فوق الطبيعة! سبق أن أخذ قوس قزح طالما ظهر بعد المطر، وجعل منه علامة عهد مع البشر أن لا يُغرق الأرض مرة أخرى بالطوفان. وأخذ الختان الذي كانت تمارسه بعض بلاد الشرق الأوسط، وجعل منه علامة عهد مع إبراهيم ونسله. وأخذ الخبز والكأس وجعل منهما علامة عهد جديد. وأخذ خمس خبزات وسمكتين ليُشبع بها خمسة آلاف. لذلك يجب أن نقدم كل ما معنا له، ونعطيه أول ثمر عملنا، ليجعل من هذه الأشياء العادية بركات فوق عادية.

3- شفى المسيح الأعمى تدريجياً:

لم يتركه حتى أكمل شفاءه، وهو لا يتركنا حتى يكمل خلاصنا، فهو رئيس إيماننا ومكمله، فنقول مع بولس الرسول: «لَمَّا كُنْتُ طِفْلاً كَطِفْلٍ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَفْطَنُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَفْتَكِرُ. وَلَكِنْ لَمَّا صِرْتُ رَجُلاً أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ. فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ فِي لُغْزٍ، لَكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهاً لِوَجْهٍ. الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ، لَكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ" (1كورنثوس 13: 11، 12). فإن محبة الرب تدخلنا إلى أعماقٍ أعمق في معرفته المباركة التي تخلصنا وتحررنا إلى الأبد.

4- أمر المسيح الأعمى بعدم دخول القرية:

كان إيمان الأعمى ضعيفاً، وكانت حماسته في الحضيض. فماذا عساه يقول لمواطنيه، وماذا يحكي لهم؟

أليس الأفضل أن يبقى بعض الوقت خارج القرية يفكر بكم صنع الرب به ورحمه، قبل أن يعلن ذلك، أو قبل أن يسأله مواطنوه عنه؟ أليس من الأفضل أن تزيد معرفته بالمسيح قبل أن يتحدث عنه؟

كم نحتاج أن نعرف المسيح أكثر، ونحبه أكثر، لنتكلم عنه أفضل!

صلاة

أبانا السماوي، نشكرك لأجل المسيح الذي فتح عيني الأعمى، وأطال أناته عليه حتى أبصر كل إنسان بوضوح. أطلب أن تصبر عليَّ حتى تنفتح بصيرتي فأرى شخصك الكريم، وأبصر طرقك المستقيم، فأتبعك مُعلناً فضل الذي نقلني من الظلمة إلى نوره العجيب. باسم المسيح. آمين.

أسئلة

1- اذكر شخصاً انفتح قلبه للمسيح في بيت صيدا، وشخصاً آخر انفتحت عيناه فيها.

2- اذكر معجزة شفاء ذهب فيها المسيح للمريض، واذكر الشاهد.

3- لماذا لم يكن أعمى بيت صيدا متحمساً لشيء؟

4- ما هو وجه الشبه بين الفقيه المذكور في مرقس 12 وأعمى بيت صيدا؟

5- أظهر أصدقاء الأعمى ثلاثة أمور بما عملوه. اذكرها.

6- اذكر ثلاثة أشياء عادية جعل منها المسيح أشياء فوق عادية.

7- لماذا أمر المسيح الأعمى بعد أن شفاه بعدم دخول القرية؟

المعجزة العشرون

عُملة من فم السمكة

«24وَلَمَّا جَاءُوا إِلَى كَفْرِنَاحُومَ تَقَدَّمَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الدِّرْهَمَيْنِ إِلَى بُطْرُسَ وَقَالُوا: «أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟» 25قَالَ: «بَلَى». فَلَمَّا دَخَلَ الْبَيْتَ سَبَقَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: «مَاذَا تَظُنُّ يَا سِمْعَانُ؟ مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ الأَرْضِ الْجِبَايَةَ أَوِ الْجِزْيَةَ أَمِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنَ الأَجَانِبِ؟» 26قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «مِنَ الأَجَانِبِ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «فَإِذاً الْبَنُونَ أَحْرَارٌ. 27وَلَكِنْ لِئَلاَّ نُعْثِرَهُمُ اذْهَبْ إِلَى الْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً وَالسَّمَكَةُ الَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً خُذْهَا وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَاراً فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (متى 17: 24-27).

انفرد القديس متى بذكر هذه المعجزة، وكما نعلم، فإنه كتب بشارته للمؤمنين من اليهود ليؤكد لهم بُشرى أن المسيح هو الله الذي ظهر في الجسد، وهو المخلص الذي جاء ليتمم مطالب العهد القديم، كما أنه المسيا الذي انتظره اليهود.

ترينا هذه المعجزة المسيح الإنسان الكامل والإله الكامل. بطبيعته، كإنسان خضع لشريعة العهد لقديم ومطالب شريعة موسى، فسدد الضريبة المطلوبة من المواطن اليهودي العادي كفارة عن نفسه، مع أنه لم يكن مضطراً لدفعها لأنه الابن. لكنه أخضع نفسه للشريعة وهو الرب. كما احتاج إلى مال ليسدد المطلوب منه. وفي الوقت نفسه أعلن عن ألوهيته لما أجرى المعجزة التي أظهرت سلطانه في البر والبحر «فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (2كورنثوس 8: 9).

وصل المسيح إلى مدينة كفرناحوم (التي كانت معتبرة أنها محل سكناه) وكان ذلك وقت جمع ضريبة الهيكل السنوي وهي نصف شاقل فضة (أي ستة جرامات). وصارت قيمة نصف الشاقل زمن المسيح درهمين، يدفعهما كل يهودي بلغ العشرين من عمره، فديةً له، وكفارة عن نفسه (خروج 30: 11-16 و2أخبار 24: 6، 9).

وكان اليهود الساكنون في الشتات (خارج أرضهم) يجمعون هذه الضريبة في صناديق يحملها أشخاص مؤتمنون إلى أورشليم. ولما طولب المسيح بها، مع أنه مُعفي منها، دفعها عنه وعن بطرس، بهذه المعجزة.

أولاً: المحتاج والمعجزة

يبدو للناظر السطحي للمعجزة أن المسيح هو المحتاج. لكن الحقيقة هي أن بطرس هو المحتاج ليدفع الضريبة المفروضة عليه. وفي طريقه للدفع كان محتاجاً لأن يتعلم ثلاثة دروس:

1- يحتاج لمعرفة معنى أن المسيح هو ابن الله، فلا يدفع الجزية:

عندما سأل المسيح تلاميذه: «مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» أجابه بطرس: «أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ». فَقَالَ لَهُ: «طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا. إِنَّ لَحْماً وَدَماً لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لَكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى 16: 15-17). ويبدو أن بطرس صاحب هذا الإعلان لم يكن يعرف كل أبعاد ومعاني الكلمات التي قالها. وكان يحتاج إلى إعلان من الروح القدس ليدرك معنى ما سبق أن قاله بطريقة أعمق.

كما أن بطرس لم يكن يعرف كل تطبيقات لقب المسيح «ابن الله» فهذا اللقب الذي عرفه وأعلنه، يعني أن المسيح «رب الهيكل» لا يجب أن يدفع ضريبة الهيكل!

عندما سأل جامعو الضريبة بطرس «أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟» (آية 24) أجاب بالإيجاب، بغير أن يرجع إلى المسيح، لأنه كان واثقاً أن معلمه التقي يتمم مطالب الشريعة كلها. وعندما رجع إلى البيت بادره المسيح بالسؤال: «مَاذَا تَظُنُّ يَا سِمْعَانُ؟ مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ الأَرْضِ الْجِبَايَةَ أَوِ الْجِزْيَةَ أَمِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنَ الأَجَانِبِ؟» (أي الذين ليسوا من عشيرتهم). وكانت الإجابة الطبيعية أنهم يأخذونها من الأجانب، لأن البنين ليسوا تحت الجزية. فقال المسيح لبطرس: «فَإِذاً الْبَنُونَ أَحْرَارٌ» (آية 26). بمعنى أني لا أدفع الجزية لأنك أنت قلت لي: ««أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ».

لقد أعطى الله لموسى تعليمات بناء خيمة الاجتماع، كما أخذ سليمان مواصفات ذلك وبنى هيكله على أساسها. وتهدم الهيكل فأعادوا بناءه بنفس المواصفات. ولكن ما أبعد الفرق بين الابن صاحب البيت وبين الخادم فيه! «لأَنَّ كُلَّ بَيْتٍ يَبْنِيهِ إِنْسَانٌ مَا، وَلَكِنَّ بَانِيَ الْكُلِّ هُوَ اللهُ. وَمُوسَى كَانَ أَمِيناً فِي كُلِّ بَيْتِهِ كَخَادِمٍ، شَهَادَةً لِلْعَتِيدِ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِهِ. وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَكَابْنٍ عَلَى بَيْتِهِ. وَبَيْتُهُ نَحْنُ إِنْ تَمَسَّكْنَا بِثِقَةِ الرَّجَاءِ وَافْتِخَارِهِ ثَابِتَةً إِلَى النِّهَايَةِ» (عبرانيين 3: 4-6).

المسيح هو الهيكل، ورب الهيكل. أما موسى فهو خادم الهيكل! والمسيح أعظم من موسى!

2- يحتاج بطرس لمعرفة أن المسيح هو هيكل الله، فلا يدفع الجزية:

كانت الجزية تُدفع للهيكل، والمسيح هو الهيكل الذي فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً (كولوسي 2: 9). فكيف يدفع جزية عن نفسه؟ وقد أعلن المسيح عن نفسه أنه هيكل الله، وقال: «انْقُضُوا هَذَا الْهَيْكَلَ وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ». فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هَذَا الْهَيْكَلُ، أَفَأَنْتَ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟». وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. فَلَمَّا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ تَذَكَّرَ تَلاَمِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هَذَا، فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلاَمِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ» (يوحنا 2: 19-22). لقد نقض اليهود بالفعل جسد المسيح على الصليب، وأقامه هو بعد ثلاثة أيام.

«وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا، وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ، مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً» (يوحنا 1: 14).

3-يحتاج بطرس أن يدرك معنى أن المسيح هو الفدية، فلا يدفع الجزية:

كانت الجزية المطلوبة نصف شاقل كتقدمة للرب للتكفير، ولسد أعواز خدمة الهيكل. وكانت «فِدْيَةُ الْكَفَّارَةِ» هذه تؤخذ من بني إسرائيل. ولما كانت تلك الجزية فدية للرب، فلم يكن المسيح محتاجاً لأنه هو المخلص. وهو الفادي والمكفِّر.

قال الله: «هَا كُلُّ النُّفُوسِ هِيَ لِي. نَفْسُ الأَبِ كَنَفْسِ الابْنِ. كِلاَهُمَا لِي. النَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ» (حزقيال 18: 4). إذ كل نفس هي له بحق الخلق فهو الخالق، وهي له بحق الفداء فهو الفادي، وبحق الإنعام بالحياة الجديدة فهو المخلّص. هو النجاة والخلاص من الموت المحقق ومن الهلاك. والمسيح الذي يفدي لا يقدم فدية عن نفسه.

بعد إعلان بطرس أن المسيح هو ابن الله، أعلن المسيح أنه آت للفداء والكفارة: « مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ ابْتَدَأَ يَسُوعُ يُظْهِرُ لِتَلاَمِيذِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَأَلَّمَ كَثِيراً مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ وَيُقْتَلَ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومَ» (متى 16: 21) أيضاً: «قَالَ يَسُوعُ لِتَلاَمِيذِهِ: إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ، وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ، وَيَتْبَعْنِي» (متى 16: 24).

المسيح هو الذي دخل إلى الأقداس مرة واحدة بذبيحة نفسه، فأوجد فداءً أبدياً، لا يتكرر سنة بعد سنة.

ثانياً: المسيح والمعجزة

1- محبة المسيح العجيبة:

(أ) ظهرت تلك المحبة لبطرس، وللذين يجمعون الجزية. فبالرغم من أنه لا يجب أن يدفع الجزية، لكن لكيلا يُخجل بطرس سددها عن نفسه وعن تلميذه. ومرات كثيرة نعد وعداً يكون أكبر من طاقتنا، ولكن المسيح يكرم إيماننا ويعطي بحسب غناه ومحبته.

(ب) وكان يمكن أن يدخل المسيح مع جُباة الضريبة في جدال ليبرهن أنه مُعفَى من دفع الجزية. لكنه أراد ألا يعثرهم وألا يجعلهم يظنون أنه يكسر الناموس. فلم يكن بعد في استطاعتهم أن يفهموا معنى الكفارة، ولا معنى بنويته لله، لأنه لا يستطيع أحد أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس (1كورنثوس 12: 3). ولم يكن الروح القدس قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد (يوحنا 7: 39). فهذه هي محبة المسيح ورقته مع جباة الضرائب.

(2) المسيح العارف بكل شيء:

(أ) عندما دخل بطرس البيت ابتدره المسيح بالسؤال: «مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ الأَرْضِ الْجِبَايَةَ أَوِ الْجِزْيَةَ؟» (آية 25). فقد عرف المسيح الحديث الذي دار بين بطرس وبين جباة الضرائب، فكل شيء عريان ومكشوف أمامه، وهو يعرف الأسئلة والانتقادات التي تُوجَّه وتصوَّب إلينا ولا نملك لها إجابة، كما أنه يعرف احتياجات عواطفنا وأجسادنا وأرواحنا.

(ب) قال المسيح لبطرس إن أول سمكة سيمسك بها ستكون بفمها العملة الكافية بالضبط لدفع الجزية عنه وعن بطرس. وهذه ليست مجرد معرفة، بل هي المعرفة ذات السلطان! لقد جاءت السمكة المعينة في ذات المكان الذي كان بطرس سيلقي الصنارة فيه، وفي ذات الدقيقة. وعندما أمسكت السمكة بالصنارة لم تسقط قطعة العملة من فمها، وظلت محتفظة إلى أن سحبها بطرس إلى اليابسة!

(3) أعلن المسيح سلطان الابن:

أعلن الملاك لمريم أنها ستلد ابن الله: «سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْناً.. هَذَا يَكُونُ عَظِيماً، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى.. الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ» (لوقا 1: 31، 32، 35)

كما أعلن الآب ذلك عند معمودية المسيح في نهر الأردن عندما قال: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ» (متى 3: 17) وأعلن المسيح ذلك وقت زيارته للهيكل في عمر الثانية عشرة، وقال: «يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟» (لوقا 2: 49). وأعلنه وقت التطهير الأول للهيكل، وقال لباعة الحمام: «ارْفَعُوا هَذِهِ مِنْ هَهُنَا. لاَ تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ» (يوحنا 2: 16).

ولقد ميَّز المسيح بين بنويته لله التي هي بنوية أصيلة، وبين بنوية التلاميذ لله التي هي مكتسبة من إنعامه. إن بنوية المسيح أزلية من قبل كل الدهور، أما بنويتنا فمكتسبة، إذ أعطاها لنا يوم سلمنا حياتنا له وولدنا من فوق. لقد قال المسيح لبطرس: «تَجِدْ إِسْتَاراً فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ» (آية 27) ولم يقل «أعطهم عنا». كما قال في موقف آخر: «إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلَهِي وَإِلَهِكُمْ» (يوحنا 20: 17) ولم يقل «إلى أبينا وإلهنا». هنا نرى الفادي والمفديين، المخلِّص والمخلَّصين.

وما أجمل قول الآب للابن في المزمور الثاني: «أَنْتَ ابْنِي. أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ» (مزمور 2: 7) فإن الابن موجود من قبل ميلاده. لم يقل له: «اليوم ولدتك. أنت ابني» فهذا ما يقوله البشر. أما المسيح فهو الابن الأزلي من قبل ميلاده العذراوي.

يريد الله أن يعلمنا درساً لنلقي أنفسنا بالتمام عليه. وعندها نُصبح أغنياء بالروح. وعندما نضع أنفسنا بضعفاتنا أمامه يكمل النقص ويقوي الضعف ويقوينا بنعمته. يريد أن يعلمنا أنه صاحب السلطان، الذي يملك الحل المذهل القريب لكل المشاكل التي تبدو بلا نهاية. إنه يحسب حساب النفقة، ويبطل معوقات امتداد ملكوته وانتشار كلمته ويقوي ضعف أولاده.

(4) أظهر المسيح أنه رب الطبيعة:

لما دفع المسيح الجزية بمعجزة أظهر أنه وهو يخضع للشريعة هو في الوقت نفسه رب الطبيعة، فقد سدَّت المعجزة الحاجة، كما أعلنت سلطان الرب. وقد بيَّن المسيح لبطرس حجمه الطبيعي في مشكلته. ومرات كثيرة نحتاج أن نتذكر أننا بدون المسيح لا نستطيع أن نفعل شيئاً، ولكننا نستطيع كل شيء في المسيح الذي يقوينا (يوحنا 15: 5 وفيلبي 4: 13). ومع أن حجمنا يتصاغر أمام المشكلة، إلا أننا بنعمة المسيح نصبح قادرين.

جعل الرب صنارة بطرس تمسك السمكة المطلوبة من أول مرة. ولما استخرج العُملة من فمها كانت بالقدر المطلوب بالضبط، فأخذها ليسدد احتياجات الهيكل. وكان بطرس مختفياً كالإستار في فم السمكة، فأخرجه المسيح من صيد السمك ليصيد به وبأخيه أندراوس الناس عندما قال لهما: «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا صَيَّادَيِ النَّاسِ» (متى 4: 19) فأعطى لحياة بطرس معنى أعظم وأعمق، وحقَّق به هدف السماء. وهكذا يجب أن يكون معك.

صلاة

أبانا السماوي، حتى السمك السابح في المياه يتمم مقاصدك، والعالم كله ينفذ خططك. من حيث لا ندري تسدد ديوننا، وتغطي كل احتياجنا.

علِّمنا التسليم الكامل لك، والطاعة المطلقة لأوامرك، فيتحقق قصدك الصالح في حياتنا. باسم المسيح آمين.

أسئلة

1- ثلاثة دروس أراد المسيح أن يعلمها لبطرس من هذه المعجزة. اذكر كل درس منها، واشرحه.

2- أظهر المسيح محبته لبطرس في هذه المعجزة – كيف؟

3- أظهر المسيح محبته لجُباة ضريبة الهيكل – كيف؟

4- ماذا نتعلم من أن بطرس صاد السمكة المطلوبة من أول مرة؟

5- كيف كان بطرس مثل الإستار في فم السمكة؟ وماذا فعل المسيح يده؟